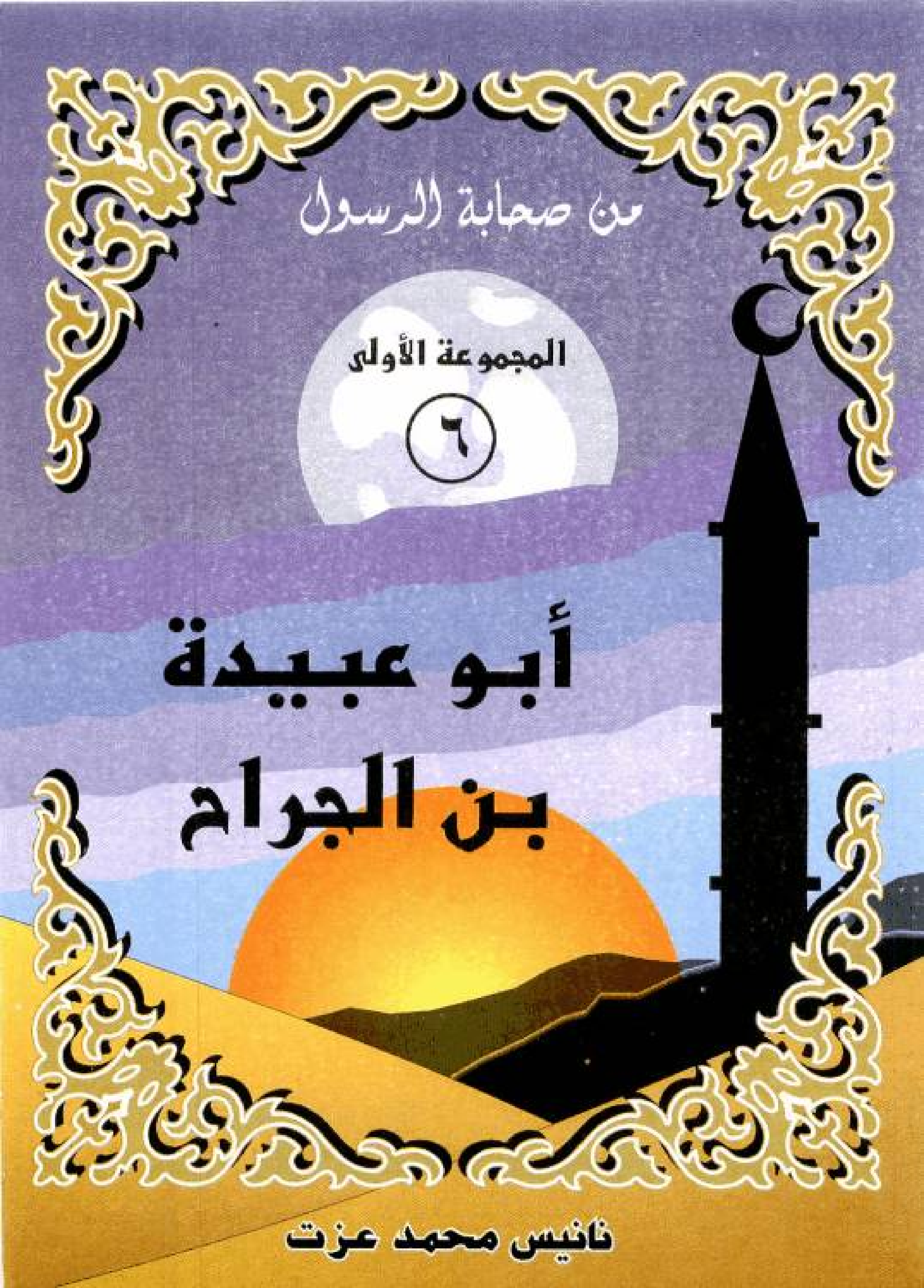

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
٦
أبو عبيدة
بن الجراح
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٦

أبو عبيدة بن الجراح

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

أبو عبيدة بن الجراح

« رَنـا » طِفلـةٌ صَغـيرَةٌ لا يُعجِبُهــا شَــىءٌ أبدا ، فهى لا ترضَى بما تقُدِّمـه لهـا أمُّهـا مـن الطَّعام ، وتتعلَّلُ أىْ تَحتَجُّ بأنَّها لا تحبُّه.

وذاتَ يومٍ قدَّمتْ لها أُمُّهـا الغَـداء ، وكـان خُضـارًا ولَحمًـا وأُرزا ، فقـالتْ « رَنـا » أنــا لا أُحبُّ هذا الطَّعام .

قالتْ أمُّهـا : ألا يُعجِبُـكِ كـلُّ هـذا ؟ فـإنْ كان لا يُعجِبُكِ صِنفٌ فكُلى من صِنفٍ آخَر .

قـالتْ «رَنـا» : أنــا لا أُحِـبُّ كـلَّ هــذه الأصْناف .

قالت أمُّها : ألا تَشكُرينَ اللّهَ أبداً يا « رَنا » ؟ فأمامَكِ أكثرُ من صِنفٍ منَ الطَّعام ، ومع ذلك تتذمَّرين : ألم تَعلمي يا « رَنا » أن بعضَ أصْحابِ الرسولِ صلّى اللّهُ عليه وسلَّمَ ، لم يَجدوا في إحْدَى الغَزواتِ شَيئًا يأكُلونَه . فأكَلوا أوْراقَ الشَّجر ؟

قالت « رَنا » مُندَهِشة : أوراقَ الشَّجرِ يا أُمّي ؟

قالتْ أُمُّها : نَعم يا « رَنا » ، ومع ذلك كانُوا حامِدين ربَّهم ، شاكِرينَ له ما أنعم به عَليهم .

قالتْ « رَنا » : وأنا سآكلُ من هذا

الطَّعامِ يا أُمّى ، على أن تَحكى لى قِصَّةَ أصْحابِ الرَّسولِ هَؤلاء .

قالتْ أُمَّها : لقدْ سُمِّيتْ هذه الغَزوةُ «غَزوةَ الخَبطِ » نِسبةً إلى أوراقِ الشّجرِ تُنفَضُ بالمَخابطِ الّتى أَكلوها ، وكانَ قائدُ المُسلِمينَ فيها أبو عُبيدَةَ ابنُ الجَرّاح ـ عامِرُ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ الجَرّاح ـ وقد أسلَمَ أبو عُبيدَةَ على يدِ أبى بكرٍ الصَدّيقِ فى الأَيّامِ الأولَى للإسْلام ، وقد قاسَى ـ مثلَ كُلِّ من أَسلمَ آنذَاك ـ على يدِ قُريْشٍ أشدَّ أَنواعِ العَذاب ، فهاجرَ إلى الحَبشةِ مع من هاجَروا إليْها فى الهِجرةِ الثّانِيَة .

وبعدَ إسْلامِ أَهـلِ المَدينـة ، وهجـرةِ الرَّسـولِ ـــ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم ـ إلَيْها ، رَجع أبو عُبيـدَةَ إلى المَدينةِ وشارَكَ في غَزوةِ بدْر، ثمّ في غَزوةِ أُحُـد ، وكان له في غزوةِ أُحـدٍ مَوقِـفٌ رائـعٌ يـدلُّ علـى حُبِّهِ الشَّديدِ للنبيِّ ـــ صلَّـى اللَّـهُ عليـهِ وسـلَّم ـــ وإخْلاصِـهِ ووَفائـه ، هـذا إلى جـانبِ شَـجاعَتِه وإقْدامِه الَّذَين لا مَثيلَ لَهما . فقد عَرفَ أبو عُبيدَة أنَّ هدف الكُفّار من قُرَيْشٍ كان قَتلَ النَّبيِّ ـــ صلَّى اللَّـهُ عَليـهِ وسـلَّمَ ـــ للقَضـاء علـى الدِّيـنِ الجَديـد . فجعلَ همَّه أنْ يَكونَ دائِمًا بجـانبِ النَّبـيِّ ـــ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسَلَّم ـــ يَضـرِب الكُفّـارَ بسَيفِه ، وعَينُـه دائمًا علىَ النَّبيِّ .

رأَى أبو عُبيدةَ سَهمًا ينطلقُ فَجأةً نَحوَ النّبىّ ، ورأى وجهَ النّبىِّ يَنزِفُ دَما ، وهو يقول : كيفَ يُفلِحُ قومٌ خَضّبوا وجَهَ نبيِّهم بالدّم وهو يدْعوهُم إلى رَبِّهم .

ورأَى أبو عُبيدَةَ حَلْقتَينِ من المِغفَر وهو دِرعٌ منَ الحَديدِ يُلبَس تَحتَ غِطاءِ الرّأس . دخَلتَا فى وَجنَتَىِ النّبىِّ – صلى اللّهُ عليه وسَلّم – فأَصرّ على أن ينزِعَهُما بنفسِه ، فأهوى عَليهِما ينزِعُهُما بأسنانِه ، وكانَ مع كلِّ حَلْقةٍ يَنزِعُها ، تُكسَرُ له سِنّ ، وعِندما أتَمَّ نَزعَ الحَلْقَةِ الثّانية ، كان قد كُسِرَت له سِنّان .

وأصبحَ أبو عُبيدَةَ فى النّاسِ أثرَم .

سأَلت « رَنا »: وكيفَ اسْتطاع أن يَنزِعَ الحَديدَ بأسْنانِه ؟

قالتْ أُمُّها : لقد زادَهُ الموْقِفُ قُوَّةً إلى قُوَّتِه ، فلم يَحتملْ أن يرَى الرَّسولَ الَّذى يُحبُّه ، مُصاباً ينزِفُ وَجهُهُ دَماً وفى وَجْنتَيهِ الحَلقَتان .

* * *

وأرسَله الرَّسولُ ـ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسلَّم ـ أميراً على ثَلاثِمائَةٍ وبضعةَ عشَرَ رجُلا فى غَزوَة ، ولم يَكن مَعهُم إلاّ جِرابٌ به تَمْر ، وعلى الرَّغمِ منَ السَّفَرِ الطَّويلِ ، والمُهمَّةِ الصَّعبَةِ الَّتى كلَّفهُم بها الرَّسول ـ صَلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ـ إلاّ أنَّهم كانوا سُعَداء .

وكانَ نَصيبُ كلِّ فردٍ منهم بِضعَ تَمراتٍ في اليَوم ، وعِندما أوشكَ التّمرُ على الفَراغِ كان نَصيبُ كلِّ فَردٍ تمرةً واحِدةً في اليَوم .

فاسْتغرَبتْ « رَنا » وقالت : تَمرَةً واحِدةً كُلَّ يَوم : كيفَ كانَت تكفيهم ؟ بل كيفَ يأكُلونَ تمرًا فقط ، ولا شيءَ غَيرَه ؟ إنَّ هذا مُمِلٌّ وصَعبُ الاحتِمال .

قالتْ أمُّها : ألم أقلْ لك يا « رَنا » إنّهم خَرَجوا في مُهِمَّةٍ جَليلة ، لا هَمَّ لهم إلاّ أن يُتمّوها ، وما عَدا ذلك فتَفاهاتٌ أىْ أشْياءُ لا قيمةَ لها لا تَعْني عِندَهم شَيئا . ثمَّ إنَّ هذه التّمرةَ كانتْ نعِمةً من اللّه ، فبعدَ أن نفِدَ وفَرغَ التّمرُ لم يجدوا شيْئاً يأكلونَه ، وكادوا يَموتونَ من الجوع ، في

صَحراءَ قاحِلةٍ جافّـةٍ لا زرعَ فيهـا يأكلُونَـه ، ولا ماءَ يَشرَبونَه .

سألت « رَنا » : وماذا فَعَلوا يا أُمّى ؟

قالتْ أُمُّهـا : لم يَجِدوا أمـامَهم إلا أوراقَ الشَّجرِ الجافَّـة ، فمـا كـان مِنهـم إلاّ أنْ طَحَنوها وأَكلوهَا ، وشَرِبوا علَيهـا من المـاءِ القَليلِ الّـذى مَعَهـم ، ولذَلـك سُمِّيت هـذه الغَزوةُ « غـزوةَ الخبـط » (أى ورقِ الشَّجرِ يُنفَضُ بالمخابط) .

نظرتْ « رَنا » إلى المـائِدَةِ أمامَهـا ، ورأتْ مـا عليهـا مـن أصْنـافِ الطَّعـامِ المُختَلفـة .

فقالَت : الحَمدُ لِلّهِ على نِعمـةِ الطَّعام الّـذى

أَجِدُه أمامى كلّما طَلبتُه . وراحَت تأكُلُ بِنَهَم .

* * *

كانَ أبو عُبيدَةَ إذا أُسنِدَ إليه أىُّ عَمل ، يُنجزُهُ على أتَمِّ وجه ، حتى أَطلقَ عَليه النّبىُّ صَلّى اللّهُ عَليه وسلّم ـ أمينَ هذه الأُمّة .

وحَدثَ أن جاءَ وَفْدُ نجَرانَ وطَلبوا مِنَ النّبىِّ أن يُرسِلَ مَعهُم رَجُلاً يُعلّمُهُم تَعاليمَ دينِهم . فقالَ لَهمُ النّبىُّ ـ صَلّى اللّهُ عليهِ وسَلّم ـ لأَبعثَنّ مَعكم رَجُلاً أميناً ، حقَّ أمينٍ، حقَّ أمينٍ ، حقَّ أمين .

وَتطلّعَ الصَّحابةُ كلُّهم واشْتاقوا لِنَيلِ هذه المكانَة ، وطَمِع كلٌّ مِنهم أن يكونَ هو الرَّسولَ إلى

نَجران ، ولكِنّها كانتَ من نَصيبِ أبى عُبيدَةَ بن الجرّاح ، أمينِ هَذهِ الأُمّة .

ومِثلَما كانَ أبو عُبَيدةَ أميناً فى عَهدِ النّبىِّ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ كانَ كذلِك أَميناً فى عَهْدَى أبى بكرِ الصِّديقِ وعُمرَ بنِ الخَطّاب ، فكان يَقومُ بكُلِّ عمل يُسنَدُ إلَيه طائعًا مُطيعا ، سواءٌ أكانَ العَملُ كَبيرًا أم صَغيرًا ، فهو لا يَسعَى إلى دُنيا يُصيبُها ويَنالُ خَيرَها ، بل كان كلُّ ما يَهدِفُ أىْ يَقصِدُ إليه رِضا اللّه ، وأن يبعَثهُ اللّهُ مع الصِّدّيقينَ والشُّهَداءِ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقا .

* * *

عندَما تولّى الخِلافَةَ عُمرُ بنُ الخَطّاب ، بعثَ كِتاباً بأنْ يَتولّى أبو عُبيدَةَ بنُ الجرّاحِ

قِيادةَ الجيشِ فى مَعركَةِ القادِسِيَّة ، مَكانَ خالِدِ بنِ الوَليد . فتَكَتَّمَ أبو عُبَيدةَ الخَبَر ولم يُخبر به أحدا ، فالمَعركةُ قائمَة ، وهو لا يُريدُ أن يَشغَلَ الجنُودَ بمَسألةِ تَغييرِ القائد . فانتظرَ حتىَّ انتهت المعرَكة ، وتمَّ النَّصرُ لخالدِ بن الوَليد ، فأطلَعَهُم على كِتابِ الخَليفة ، وكان لِتكتُّم أبى عُبيدةَ الخبر ، أثرٌ عظيمٌ فى نُفوسِ المُسلِمين .

وأصبحَ أبو عُبيدَةَ بنُ الجرّاحِ أميرَ أُمراءِ الشّام ، وتحتَ يدِهِ أكثرُ جُيوشِ المُسْلِمينَ عَددًا وعُدَّة ، وأكثرُها عَظمةً وقُوَّة . فافْتتَنَ الناسُ بعَظَمتِه وقُوَّتِه وأمانتِه ، فجمَعَهُم جَميعا وخَطب فيهم : يأيُّها النّاسُ ما أنا إلا

مُسلِمٌ من قُرَيْش ، وما مِنكم من أَحدٍ أَحمرَ ولا أسودَ يَفضُلُنى بتَقوَى ، إلا ودِدتُ أنّى فى إهابه (أى تحتَ سُلطانِه) .

قالتْ « رَنا » : هذهِ الدَّرجَةِ يا أُمّى كان مُتَواضعا ؟ فهو برَغم كلِّ شىءٍ أميرُ أُمراءِ الشّام .

قالتْ أُمُّها : إنّهم ـ كما سَبقَ أن قُلنا ـ رِجالٌ اشتَرَوْا آخِرَتَهُم بدُنياهُم . وقد ظهرَ هذا جَليًّا واضِحًا عِندما زارَهُ الخَليفَةُ عمرُ بنُ الخطّابِ فى بَيتِه بالشّام ، فرآهُ بيتًا متُواضعًا لا يَحْتوى إلاّ على سَيفِهِ وتُرْسِهِ ورَحْلِه أىْ ما يُجعَلُ على ظَهر البَعير.

فسألَهُ عُمَر : لماذا لم تتّخِذ لِنفسِكَ بَيتًا أفضَل ؟

فردّ عَليه أبو عُبيدَةَ بقَوْلِه : يا أَميرَ المؤمِنينَ هذا يُبلِّغُنى المَقِيل ..

ويَموتُ أبو عُبيدَةَ ويُدفَنُ فى الأُرْدُنّ ، فى الأرضِ الّتى طَهَّرها من وَثنيَّةِ الفُرس واضْطهادِ الرّوم .

قالتْ « رَنا » : إن قصَّةَ أبى عُبيدة يا أُمى قصّةٌ جَميلَة ، مَليئةٌ بالحُبِّ والوَفاءِ والتّضحِية .

فأجابتْها أُمُّها : الأهَمُّ من ذلك ، أن نتعلَّم منها أن نَشكُرَ اللّهَ على نِعَمِه ، فنِعَمُ اللّهِ كثيرَةٌ لا حصرَ لها ، وأبسَطُ مثالٍ لذلك هذا الطَّعامُ الّذى تتذمَّرينَ مِنهُ وتَرفُضينَه ، بينما

كثيرونَ غيرُكِ لا يجَدون مِثلَه ، أو بعضًا مِنه ، ليَسُدّوا به جوعَهُم .

وقد قال اللّهُ سُبحانهُ وتعَالى ﴿ لَئن شَكرْتُم لأَزيدَنّكُم ﴾